محاضرة

دروس مستفادة من

الــحـــــج

فضيلة الشّيخ عبد الرزاق البدر

حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (٢)

الشيخ لم يراجع التفريغ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي فرض الحجَّ علىٰ عباده إلىٰ بيته الحرام ورتَّب علىٰ ذلك عظيم الأجر ووافر الإنعام، فمن حجّ البيت ولم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه نقيًّا من الذُّنوب والآثام..

وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله صلَّىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه الكرام.

أمَّا بعد . .

أيُّها الإخوة المؤمنون، كما يعلم الجميع أنَّ الحجَّ فريضة عظيمة، وطاعة جليلة، وعبادة من أجل العبادات، وهو ركنٌ من أركان الإسلام كما في الحديث الصَّحيح عن النَّبي ﷺ أنَّه قال: « **بُني الإسلام علىٰ خمس: شهادة أن لا إله إلَّا الله وأنَّ محمَّدًا رسول الله، وإقام الصَّلاة، وإيتاء الزَّكاة، وصوم رمضان وحجُّ البيت الحرام**».

فالحجُّ فريضةٌ من فرائض الإسلام العظيمة، وركنٌ عظيمٌ من أركان هٰذا الدِّين، وقد رتَّب اللهُ -تبارك وتعالىٰ- علىٰ القيام بهٰذه الطَّاعة وأداء هٰذه العبادة أجورًا عظيمَة وأفْضالًا كريمة وخيراتٍ جمَّة في الدُّنيا والآخرة .

وقد جاء في الصَّحيح أن النبي ﷺ قال لعمرو بن العاص عند إسلامه: «**أمَا علمتَ أنَّ الإسلام يهدم ما قبله، وأنَّ الهجرة تهدم ما قبلها، وأنَّ الحجَّ يهدِم ما قبله**» وهٰذا يبيِّنُ عظم شأن الحج وأنَّه يهدم؛ أي يجبُّ ويمسح ما قبله من الخطايا والذُّنوب .

وفي الصَّحيح من حديث أبي هُريرة أنَّ النبي ﷺ قال: «**من حجَّ ولم يرفُثْ ولم يفسُقْ رجع كيوم ولدته أمُّه**» أي: كما كان أمره عندما وُلد بدون ذنبٍ ولا خطيئة ، بمعنىٰ أنَّ الحجَّ يمسحُ ما كان قبله.

وثبت في الصَّحيح عن النَّبي ﷺ أنه قال: «**الحج المبرور ليس له جزاءٌ إلا الجنَّة** » .

والأحاديثُ في بيان عِظم شأن الحج وجلالة شأنه ورِفعة قدره وكثرة عوائده وخيراته علىٰ المُؤمن في الدُّنيا والآخرة في هٰذا المعنىٰ كثيرةٌ جدًّا.

فالحجُّ طاعةٌ عظيمة يترتَّب عليها خيراتٌ عديدة في الدُّنيا والآخرة من زيادة الإيمان وزكاءِ النَّفس وصلاح العمل، ورِفعة الدَّرجات، وتكفيرِ السَّيِّئات وتمحيص للعبد.. وما إلىٰ ذلك من الفوائد العظيمة

التي ينالها العبدُ المؤمن بحَجِّه لبيت الله الحرام.

إلَّا أنَّ المُسلم يتأكَّد عليه عند قيامه بهٰذه الطاعة العظيمة والعبادة الجليلة: حجّ بيت الله الحرام أن يحرِص علىٰ تتميمه وإكمالِه، والإتيان به صحيحًا سليمًا بعيدًا عن الأمور المُخلَّة به أو المُنقصة أجره.

وقد مرَّ معنا قول النَّبيِّ ﷺ: «**الحج المبرور ليس له جزاءٌ إلَّا الجنة** » وهٰذا يعني أنَّ المسلم ينبغي له أن يعتني عناية عظيمة بأن يكون حجُّه مبرورًا وسعيُه مشكورًا يسعىٰ في ذلك سعيًا حثيثًا ويُجاهد نفسه علىٰ ذلك.

ولهٰذا من المفيد للمسلم الذي يقدِم علىٰ أداء هٰذه الطَّاعة العظيمة: حجَّ بيت الله الحرام أن يعرف بأيِّ شيء يكون الحجُّ مبرورًا، بأي شيءٍ يكون الحجُّ مبرورًا ليجاهد نفسَه علىٰ برِّ حجِّه وتتميمه وتكميله، والعلماء -رحمهم الله- يقولون: إنَّ الحجّ لا يكون مبرورًا إلا بشرطين:

الأوَّل: أن يقصد الحاجُّ بحجِّه وجهَ الله عَزَّوَجَلَّ، يريد بحجِّه ثوابَ الله والدار الآخرة، لا يريد بحجِّه رياءً ولا سُمعة، ولا يريد به الدُّنيا وحُطامها، وإنَّما يريد وجه الله عَزَّوَجَلَّ والدّار الآخرة، قال الله تعالىٰ: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾ [الإسراء] أي: هؤلاء هم الذين يشكر الله عملَهم ويرضاه ويقبلُه إذا أتوا به علىٰ بهٰذه الصفة، يريدون وجه الله، يريدون به ثواب الآخرة، يريدون به موعود الله عَزَّوَجَلَّ لمن حجَّ بيته، ومن أراد الآخرة لا يريد بعمله الآخرة لا يريد بعمله الدُّنيا، الذي يريدُ بعمله الدُّنيا حكمه آخر بينه وبيَّن الله عَزَّوَجَلَّ في الآية التي قبل هٰذه الآية حيث قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ ﴾[الإسراء].

ولهٰذا لابدَّ من الإخلاص في الحجِّ وفي غيره ليكون العمل مقبولًا عند الله عَزَّوَجَلَّ، فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لا يقبَلُ عمل عاملٍ كائنًا من كان إلَّا إذا أخلصه لله عَزَّوَجَلَّ، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾[البينة:٥]، وقال تعالىٰ: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾[الزمر:٣]، وجاء في الحديث القُدْسي أنَّ الرَّبَّ عَزَّوَجَلَّ يقول: «**أنا أغنىٰ الشُّركاء عن الشِّرك من عمل عملًا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه**»، فهو عَزَّوَجَلَّ لا يقبل عملَ العامل إلَّا إذا أراد به وجهَ الله والدَّار الآخرة، ولهٰذا أهلَّ صلواتُ الله وسلامُه عليه بتوحيد الله.

فقال كلمته العظيمة التي يردِّدها المسلمون من بعده: «**لبيّك اللّهمَّ لبّيك، لبّيك لا شريك لك لبيك، إنَّ الحمد والنِّعمة لك والملك لا شريك لك**»، وهٰذه كلمة إخلاص وتوحيد، كما سيأتي بيان ذلك إنْ

شاء الله.

أمَّا الأمر الثَّاني الذي لا يكون الحجّ مبرورًا إلَّا به: أن يكون العملُ موافقًا لهَدي النَّبيِّ ﷺ، فكما أنَّ الله ﷻ لا يقبل من العمل إلَّا ما كان خالصًا لوجهِه فإنَّه ﷻ لا يقبل من العمل إلَّا ما كان مطابقًا لسُنَّة نبيه -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، فليس لأحدٍ أن يعبد الله بما شاء، وإنَّما الواجبُ عبادة الله بما شرَع وبما جاء عن الرَّسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

ولهٰذا ثبت في الحديث الصَّحيح أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: « **من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو ردّ**» ، وقال فيما يتعلق بالصلاة : «**صلُّوا كما رأيتموني أصلِّي**»، وقال فيما يتعلق بالحج: «**خذوا عنِّي مناسككم**» ، ولهٰذا كان متأكِّدًا علىٰ كلِّ مسلم أن يتحرَّىٰ هدْيَ النبي ﷺ، يتحرىٰ هديه ويتعلَّم سنَّته، ويعرف طريقته صلواتُ الله وسلامه عليه ليقتفي آثاره وليسلُك مسلكه وليلزم غرْزه صلوات الله وسلامه عليه.

فهٰذان شرطان أساسان وركنان عظيمان لا قَبول لعمل من أعمال الحج أو غير الحج إلَّا بهما:

- أن يكون العمل لله خالصًا.
- وأن يكون لسنّة النبي ﷺ مطابقًا.

ولهٰذا كما قدمت ينبغي علىٰ كلِّ مسلم أكرمه الله ﷻ ومنَّ عليه بالمجيء لأداء هٰذه الطَّاعة أن يجعل نصْب عينيه وأمام ناظريه هذين الأمرين العظيمين:

الإخلاص للمعبود.

والمتابعة للرّسول.

الإخلاص للمعبود وهو الله ﷻ، والمتابعة للرّسول وهو محمّد ﷺ، حتىٰ ينال هٰذا الثّواب العظيم ويظفَر بهٰذا الأجر الجزيل الذي جعله الله ﷻ لمن حجَّ البيت بارًّا بحجه مكملًا له متممًا له في حديثه، عندما قال -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: «**الحجّ المبرور ليس له جزاءٌ إلا الجنة** » ، ويحرِص أيضًا علىٰ ما دلَّ عليه قول النبي ﷺ: « **من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه** » .

أيّها الإخوة، موضوعُ حديثنا هٰذه الليلة هو عن **الدُّروس المستفادة من الحج**.

والحج آية الأخوة مدرسةٌ إيمانيّة عظيمة يتلقَّىٰ فيها المؤمنون الدُّروس العظيمة والعِبر المؤثِّرة والعظات النافعة والمنافع المتعدِّدة.

الحجّ مدرسة تتهذَّب فيها النُّفوس وتزكُو فيها القلوب ويزداد فيها الإيمان، وترتفع فيها الدّرجات، وتُقال فيها العثرات وتكفر السَّيِّئات، مدرسة يتخرَّج منها أهلها بأتمّ ما يكون من النجاح وأكمل ما يكون

من الفلاح والصَّلاح، مدرسةٌ عظيمة.

ليس الحجّ رحلةً للاستطلاع أو سفر للنـزهة والاستمتاع ، وليس الحجُّ مجرّد شعارات جوفاء؛ بل الحجّ إيمان وبر وطاعة وإحسان وبر وإيقان، وإقبال علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ الكريم الرّحمن، ولهـٰذا ينبغي علىٰ كلِّ من منّ اللهُ عليه وأكرمه بالمجيء إلىٰ الحج أن يضع في باله أنَّ الحجّ مدرسة، وأنّه مقبلٌ في حجِّه علىٰ دروسٍ عظيمة ينبغي يُفيد منها وأن يستفيد في تحصيلها وأن يحرص عليها تمام الحرص.

ودروس الحج التي يتلقَّاها الحجّاج في حجِّهم هي مقاصد الحجِّ العظيمة؛ كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾[الحج]، هكذا قال الله: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾[الحج].

وتأمَّل قولَ الله عَزَّوَجَلَّ في هـٰذه الآية: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ قال العُلماء: اللَّام في قوله: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟﴾ لام التَّعليل، وهي متعلقة بقوله: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ ومعنىٰ ذلك: أنَّ الأذان بالنَّاس في الحجّ مقصودُه أن يشهد النَّاس المنافع العظيمة في حجِّهم لبيت الله ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ أذِّن فيهم بالحجّ من أجل ماذا؟ من أجل أن يشهدوا المنافع، فالحج فيه منافع عظيمة وفوائد كثيرة جدًّا ودروس نافعة وعظات بالغة ينبغي أن يحقِّق الحاجُّ في نفسه معنىٰ الشُّهود لهـٰذه المنافع، بمعنىٰ أن يهيِّئ نفسَه علىٰ تلقِّي منافِع الحجِّ وأخذ فوائده ومعرفة دروسه وعظاته وعبره، ليَخرج منه وقد حصّل دروسًا عظيمة وفوائد كبيرةٍ جدًّا.

هـٰذا معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ وأؤكِّدُ أيُّها الإخوة أنَّ هـٰذا الأمر ينبغي أن يكون في ذهن كلِّ حاجّ عندما يُقدم علىٰ حج بيت الله الحرام أن يضع في باله أن يشهد منافع الحجّ، والحج من أوَّله إلىٰ آخره، من أوَّل لحظة فيه إلىٰ أن يطوف المُسلم بالبيت سبعة أشواط مودِّعًا لبيت الله الحرام ، من أوَّله إلىٰ آخره دروس وعبر مؤثرة غاية التأثير.

ودروس الحجّ وعِبره لا تقتصر علىٰ جانبٍ معيَّن من جوانب الدِّين، وإنما هي دروسٌ عامَّة منوَّعة شاملة للدِّين كله.

ففي الحج دروسٌ عظيمة في إصلاح العقيدة وتقويمها، وفي الحجِّ دروس عظيمة في إصلاح العبادة وتزكيتها، وفي الحجِّ دروسٌ عظيمةٌ في تهذيب الأخلاق وتحسينها، دروسٌ عظيمة لكنَّ النَّاس يتفاوتُون

تفاوتًا عظيمًا في تلقِّي هـٰذه الدُّروس:

فمنهم من يعودُ من حجِّه وقد امتلأ قلبُه بالدُّروس العظيمة والعِبر الكثيرة المؤثِّرة.

ومنهم من يعودُ ولم يحصِّل إلَّا قليلًا ونزْرًا يسيرًا من هـٰذه الدُّروس.

ومنهم من يعودُ وما عنده شيء؛ كان غافلًا لاهيًا مُعرضًا، جسمه ذهب للحج وقلبه منشغل.

ولهـٰذا نؤكِّد أنَّ المسلم ينبغي له من بداية حجِّه أن يهيِّئ نفسه مستعينًا بربه عَزَّوَجَلَّ بأن يفيد من حجِّه تلك الدروس، وأن يشهد في حجِّه تلك المنافع التي إليها الإشارة بقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ ﴾.

ومنافع الحج -أيُّها الإخوة- علىٰ نوعين:

القسم الأوّل: منافع دينية عظيمة جدًّا يتلقّاها المؤمنون في حجهم لبيت الله الحرام، ومنها كما أسلفتُ ما يتعلَّق بالاعتقاد، ومنها ما يتعلَّق بالعبادة، ومنها ما يتعلّق بالأخلاق، وسيأتي التَّنبيه علىٰ جملة من هـٰذه المنافع.

والقسم الثَّاني: منافعٌ دنيوية أباحها الله عَزَّوَجَلَّ لعباده في حجِّهم لبيت الله الحرام، قال تعالىٰ: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾[البقرة:١٩٨] ومعنىٰ الآية بإجماع أهل العلم: أن المحرم الحاج ليس عليه جناحٌ أن يترزّق ويتكسب ويبيع ويشتري بما لا يخلُّ مقصوده الأساس وهو: حج بيت الله الحرام ما دام مؤدِّيًا لأعمال الحج متمّمًا لها مكملًا لها غير مخل بشيء منها، ليس عليه جناح أن يبتغي فضلًا من الله عَزَّوَجَلَّ ببيعٍ أو شراء أو نحو ذلك مما أباحَه الله عَزَّوَجَلَّ وأحلَّه لعباده.

وأهم من هـٰذه المنافع الدُّنيوية: المنافع الدينية، التي هي حقيقة فرصة عظيمة للحاجّ قد لا تعود له مرّة ثانية، فلا ينبغي له أن يفوِّتها دون أن يحصِّل تلك المنافع .

ولعلِّي أيها الإخوة أستعرِض لكم جملةً من أعمال الحج وأُشير من خلالها إلىٰ المنافع الدِّينية والدُّروس العظيمة التي يُمكن تحصيلها وإفادتها من تلك الشَّعائر والأعمال.

ونبدأ أوَّلًا بأوَّل عملٍ يقوم به الحاجّ عندما يصل إلىٰ الميقات ويغتسِل ويتطيَّب ويلبس إزارًا ورداءً أبيضين نظيفين، ثم يهلُّ بالنُّسك الذي يريد إمَّا التمتع أو القران أو الإفراد، يهلُّ بتوحيد الله عَزَّوَجَلَّ : (لبيك اللّٰهُمَّ لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والنعمة لك والملك، لا شريك لك) وهـٰذه الكلمات كما قال جابر بن عبد الله كما في «صحيح مسلم» عندما وصف حجَّة النبي ﷺ: (فأهل

النبي ﷺ بالتوحيد قائلًا: «**لبّيك اللّٰهُمَّ لبيك، لبّيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك** »، وهـٰذا إهلالٌ بتوحيد الله عَزَّوَجَلَّ، فهـٰذه الكلمات -كلمات التلبية- هي كلمات توحيد وإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ، وبُدئ بها أوَّل الحج فهـٰذا نفيدُ منه فائدة عظيمة ودرسًا مهمًّا: أنَّ الحج لا يكون مقبولًا عند الله عَزَّوَجَلَّ إلَّا إذا أقامه العبد علىٰ التوحيد -علىٰ توحيد الـل-، وهكذا الشّأن في كل طاعة وعبادة لا يقبلها الله عَزَّوَجَلَّ من العامل إلّا إذا أقامها علىٰ توحيد الله.

يُرشدنا إلىٰ هـٰذا إهلاله صلوات الله وسلامه عليه بالتوحيد: «**لبيك اللّٰهُمَّ لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إنّ الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك** ».

والسّنّة كما تعلمون أن يرفع صوته بالتلبية، ويكون كل حاج ملبيًا بمفرده دون ارتباط بمجموعة؛ لأن التلبية الجماعية التي تكون بصوت واحد ليست من هدي النبي ﷺ ولا من سنته.

وإنَّما السنة أن يلبي كل واحد بمفرده ويرفع صوته حتىٰ أن أصحاب النبي ﷺ ورضي عنهم ما كانوا يبلغون بئر روحاء إلا وقد بُحَّت أصواتهم من رفعهم لأصواتهم بالتلبية، (لبيك اللّٰهُمَّ لبيك) .

والمتأكد علىٰ المسلم عندما يلبِّي ويرفع صوته بالتلبية أن يستشعر معاني هـٰذه الكلمات؛ لأنّ هـٰذه الكلمات ليست ألفاظًا لا معنىٰ لها، أو عبارات لا مدلول لها؛ بل هي كلمات عظيمة المعنىٰ عظيمة الدلالة، ليست كلمات جوفاء ليس لها معنىٰ، حاشاها أن تكون كذلك؛ بل هي كلمات عظيمة مشتملة علىٰ أجلِّ المعاني، فهل من اللائق بالمسلم أن يحج ويكرِّر هـٰذه الكلمات عشرات المرات أو مئات المرات ويعود إلىٰ بلده وهو لا يدري ما هي هـٰذه الكلمات، مجرَّد كلمات يسمع الناس يقولونها فيقولها مثلهم، هل هـٰذا من اللائق بالحاجّ ؟!

الجواب: لا، بل المتأكِّد علىٰ الحاج أن يحرص علىٰ فهم معاني هـٰذه الكلمات ، ومعانيها واضحة، وهي في الجملة إعلان بالتوحيد لله عَزَّوَجَلَّ (لبيك اللهم لبيك) .

أليس الله عَزَّوَجَلَّ قال في القرآن: ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا ﴾[الحج:٢٧] يعني: أُدعهم إلىٰ الحج، نادهم إلىٰ الحج، ما جواب النِّداء؟ (لبيك) ، فـ(لبيك اللهم لبيك) هي استجابة من بعد استجابة، تلبية من بعد تلبية، قَبول من بعد قبول، دخولًا في طاعة الله ، امتثالًا لأوامر الله عَزَّوَجَلَّ، نادىٰ عباده للحج فأجابوا نداءه ملبين قائلين: (لبيك اللهم لبيك) يعني: يا ألله استجبنا وامتثلنا أمرك، وانقدنا لما أمرتنا به فجئتنا طائعين قائلين: لبيك اللهم لبيك، ملبِّين النداء .

فهي كلمة تعني الإعلان بالدخول في طاعة الله وامتثال أوامر الله ﷻ، أمرهم بالحج فقالوا: لبيك اللهم لبيك .

خذوا هنا فائدة: عندما يأمرنا ﷻ بالصلاة، ونحن نعلم أن الصلاة أعظم وأهم من الحج، فالصلاة أعظم أركان الإسلام بعد الشَّهادتين، عندما ينادي عباده للصلاة ويأمرهم بها؛ الآيات التي تأمر بالصلاة في القرآن أكثر من الآيات التي فيها الأمر بالحج .

كثيرة الآيات التي فيها الأمر بإقامة الصلاة والمحافظة علىٰ الصلاة والتحذير من ترك الصلاة كثير جدًّا في القرآن الكريم، فلما أمر الله ﷻ عباده بذلك وأمر بالأذان الذي هو نداء للصلاة: حي علىٰ الصلاة، حي علىٰ الفلاح ، ما الواجب علىٰ العبد مع هٰذا النداء ؟

أليس الواجب أن يلبِّي النِّداء؟! نادىٰ عباده بالحج فلبوا نداءه، وناداهم للصلاة ألا يلبون نداءه ؟! ألا يحافظون علىٰ ما أمرهم بالصلاتهم ؟

المصيبة يا إخوان عظيمة، قد يأتي بعض الناس للحج ولكنه ما يصلي حتىٰ في أثناء الحج يتهاون في الصلاة ويخل بها، ولا يحافظ عليها ويضيِّع أوقاتها ، أليست هٰذه مصيبة ؟!

والصلاة فريضة عظيمة من فرائض الإسلام وركن عظيم من أركان الدِّين، قال -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: « **العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر** » ، وذكرت عنده صلوات الله وسلامه عليه يومًا فقال: « **من حافظ عليها كانت له نورًا وبرهانًا ونجاة يوم القيامة، ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة يوم القيامة ، وحشر مع قارون وفرعون وهامان وأمية بن خلف** » .

هكذا يقول ﷺ: الذي لا يحافظ علىٰ الصلاة يوم القيامة يحشر مع هؤلاء ، من يرضىٰ أو يحب لنفسه أن يحشر يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأميّة بن خلف؛ رؤوس الكفر ؟!

فإذا ما لبينا النداء بالحج وقلنا: (لبيك اللهم لبيك) أليس من الواجب علينا والمتأكِّد أن نلبِّي نداءه ﷻ بالصّلاة فنحافظ عليها.

كثيرٌ من الحجّاج تكبّد في حجه المشاق الكثيرة والعناء الطويل وجمع المال الكثير ليلبِّي نداء الله ويحجَّ بيته الحرام، والصَّلاة لا تكلِّفه هٰذا التَّكليف ولا تتطلَّب منه هٰذه الأمور ويصلِّيها في مسجده الذي بجنبِ بيته مع جماعة المسلمين أمرُها يسير جدًّا.

فلماذا يفرط بعض المنتسبين لهٰذا الدين، ولماذا يضيعونها ، قال الله ﷻ: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ

﴿ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ ماذا يلْقَون يوم القيامة؟ قال: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۝٥٩﴾[الأعراف] وادي في جهنم .

ولما يسأل أهل النار عن سبب دخولهم النار: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝٤٢ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝٤٣﴾ ما كنَّا نصلِّي هـٰذا هو السبب ، ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ۝٤٤﴾[المدثر] ... إلىٰ آخر الآيات.

فهـٰذه دروس عظيمة (لبَّيك اللّٰهُمَّ لبيك) ترفع صوتها بها (لبَّيك اللّٰهمَّ لبَّيك) وتكرِّرها وتتجه إلىٰ البيت، والله عَزَّوَجَلَّ قبل ذلك دعاك لتصلِّي إلىٰ هـٰذا البيت خمس مرات في اليوم والليلة، فينبغي أن تنقاد وتلبِّي النداء وتصلِّي كل يوم خمس مرات كما أمرك الله عَزَّوَجَلَّ ، فهـٰذه فائدة عظيمة (لبَّيك اللّٰهُمَّ لبيك).

(لبيك لا شريك لك لبيك) لا شريك لله عَزَّوَجَلَّ في الدَّعوة، فلا يُدعىٰ ولا يسأل ولا يعبد ولا يلجأ إلا إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ الذي لا شريك له .

(لا شريك لك): أي لا ند لك ، كما قال تعالىٰ : ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٢﴾[البقرة] أي: لا تجعلوا لله شركاء في العبادة وأنتم تعلمون أنه لا خالق لكم غير الله .

(لبيك لا شريك لك) عندما يقول الحاج (لبيك لا شريك لك) يجب عليه أن يستشعر أنَّه ليس لله شريك؛ لا في ربوبيته ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم﴾[فاطر:٣]، لا شريك لله في ربوبيته، ولا شريك لله في أسمائه وصفاته ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝١٨٠﴾[الأعراف]، ولا شريك له في العبادة: لا معبود حقٌّ إلا الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة:٥].

فينبغي علىٰ من يقول: (لبيك اللّٰهُمَّ لبيك) أن يستشعر ذلك: أن الله لا شريك له في ربوبيته، بمعنىٰ أنه وحده الخالق الرَّازق المُنعم المتصرف المدبر لشؤون خلقه كلها .

ولا شريك له في أسمائه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وصفاته ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورىٰ] ، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝٦٥﴾[مريم]، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾[الإخلاص] سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ .

ويستشعر أنَّ الله لا شريك له في ألوهيته، بمعنىٰ: أنَّه وحده المعبود بحق ولا معبود بحق سواه ، وهـٰذا معنىٰ قول المسلمين: (لا إله إلا الله) أي: لا معبود بحق إلا الله عَزَّوَجَلَّ.

(لبيك لا شريك لك لبيك، إنَّ الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك).

الحمد كلُّه لله، وإلىٰ هنا في الحمد تفيد الاستغراق، بمعنىٰ أنَّ الحمد بجميع أنواعه لله عَزَّوَجَلَّ.

لله الحمد وحده، ربّ السَّمٰوات ورب الأرض، رب العالمين، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فـ(الحمد لله) والحمد هو الثناء علىٰ الله ﷻ مع حبه، الثناء علىٰ الله مع حبِّه ﷻ.

الحمد لله (إنَّ الحمد والنعمة) أي: النعمة لله، و(أل) في قوله (النعمة) للاستغراق ، أي: جميع النعم لله ﷻ .

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾[النحل:٥٣]، ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾[النحل:١٨] كلّ نعمة أنعم الله ﷻ عليك بها في قديمٍ أو حديث في سرٍّ أو علانية في خاصّة أو عامّة، هي من الله.

فأنت تُعلن ذلك لله وأنت في طريقك للحج تعلن ذلك، وترفع صوتك (إنَّ الحمد والنعمة لك) يعني: يا أله كل حمد لك، كل ثناء لك، كل تعظيم لك، كل تمجيد لك، لك كل نعمة صغرت أو كبرت، دقلت أو جلَّت ، لك يا أله، أنا وما بي من نعمة فهي منك يا أله .

يعلن ذلك وهو في طريقه للحج (إنَّ الحمد والنعمة لك والملك) الملك لله ﷻ.

﴿مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ ﴾[آل عمران:٢٦] بيده الملك وبيده الأمر وإليه يرجع الأمر كله﴾، فهو ﷻ ﴿مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ ﴾، مالك الدُّنيا والآخرة، مالك العالمين، الكلّ مماليك لله، الكلّ خلْق الله ﷻ ، هو خالقهم وهو مالكهم ، وهو مدبر شؤونهم ﷻ، فيُعلن ذلك العبد (إنَّ الحمد والنِّعمة لك والملك) يعني: والملك لك، (لا شريك لك): أي: ليس لك شريك في الحمد، وليس لك شريكٌ في النِّعمة، وليس لك شريكٌ في المُلك .

ومن كان هـٰذا شأنه هل يُجعل معه شريكٌ في العبادة ؟!

الحمد له، والنِّعمة له، والملك له، هل يُجعل معه شريك في العبادة ؟!

هل يُدعىٰ معه غيره ؟!حاشا وكلا.

ولهـٰذا قال تعالىٰ : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ ﴾[الأحقاف].

ويقول تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾[سبأ].

ويقول تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ ﴾[الإسراء].

ويقول تعالىٰ : ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ﴾ [فاطر].

فلا يدعىٰ إلَّا لله، وهـٰذه فوائد عظيمة يستفيد المسلم من التلبية من هـٰذه الكلمات .

وابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بعض كتبه قال: (في التلبية فوائد عظيمة، وقواعد متينة) ثم ذكر ما يقارب الثلاثين فائدة كلها مأخوذة من كلمات التلبية : (لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك إنَّ الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك) وكثيرٌ من الناس يذهب ويردد هـٰذه الكلمات دون أن يستشعر معاني هـٰذه الكلمات الجليلة.

هـٰذا درسٌ يتعلق بالتَّلبية من دروس الحج.

عندما يصل الحاج إلىٰ بيت الله العتيق ليطّوّف بالبيت كما أمره الله ﴿ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحج] عندما يصل إلىٰ البيت، والطَّواف بالبيت كما تعلمون هو أوَّل عمل يقوم به الحاج عندما يصل إلىٰ مكة، سواء المفرد أو القارن أو المتمتع ، أمَّا المفرد والقارن فإنّهما يطوفان بالبيت طواف القدوم تحيةً للبيت، وأمَّا المتمتِّع فإنَّه يطوف بالبيت طواف العُمرة الذي هو ركن من أركان العمرة .

فالكلُّ أوَّل عمل يبدأ به: يطوف بالبيت ، والطواف ما هو ؟

الطَّواف: دورانٌ حول بيت الله الحرام، بحيث يجعل الحاجّ البيت علىٰ يساره، ويدورُ بالبيت سبعة أشواط يبدؤها بالحجر الأسود ويُنهيها عند الحجر الأسود، من الحجر إلىٰ الحجر شوطٌ، يدور سبعة أشواط حول بيت الله الحرام معظِّمًا لله، مكبِّرًا لله، حامدًا لله، مُخبتًا منيبًا إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، يدورُ حول بيت الله ذليلًا مطيعًا خاشعًا منكسرًا بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ، يطوفُ حول البيت طاعةً لله وامتثالًا لأمر الله؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ أمره بذلك، قال تعالىٰ: ﴿ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ﴾.

لأجل هـٰذا يطوف المسلمون ببيت الله، يطوفون طاعة لله عَزَّوَجَلَّ وامتثالًا لأمره، ولهـٰذا طاف -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- بالبيت في عُمَره وحجِّه ، صلوات الله وسلامه عليه.

والطوافُ بالبيت عبادة شرعها الله عَزَّوَجَلَّ وأمر عباده بها، ورتَّب عليها أجورًا عظيمة وأفضالًا كريمة في الدنيا والآخرة، فعندما يطوف المسلم بالبيت ويؤدِّي هـٰذه العبادة طاعةً لله، يأخذُ في هـٰذا المكان فائدة مهمَّة ودرسًا عظيمًا، أن هـٰذه الطاعة العظيمة وهي الطواف ببيت الله الحرام إنَّما شُرعت في هـٰذا المكان فقط.

هل الله عَزَّوَجَلَّ شرع لعباده طوافًا بغير هـٰذا المكان ؟!

هل شرع لهم طوافًا بقبر أو بشجرة أو بقبة أو بضريح أو غير ذلك ؟ كائنا من كان.

هل هـٰذا أمر شرعه الله؟ هل هـٰذا أمر أذن الله به؟ فمن يطوف بقبر أو قبة أو ضـريحٍ أو شـجرةٍ؛ عمِـل عملًا أذن به الله؟ أو عمل عملًا لـم يـأذن بـه الله ؟! ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾[يـونس]، ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾[الشورىٰ:٢١] من أذِن للنَّاس أن يطّوفـوا بقبَّـة أو بضريح أو بشجرة أو غير ذلك كائنًا من كان ؟ هل أذِن الله لعباده بذلك؟

ما أذن لهم إلا بالطّوّاف حول بيته العتيق، فمن طاف بقبر أو شجرة أو قبَّة أو غيـر ذلـك سـوَّىٰ بـذلك بيت المخلوق ببيت الخالق، تعالىٰ الله ﷻ عن ذلك وتـنزَّه.

ولا يُسوَّىٰ غيرَ الله بالله، ولا يُعمل أي عمل لم يأذن به الله، ولهـٰذا فالطّواف بغير البيـت العتيـق عمـلٌ ليس من شرع الله ولا من دينه؛ بل هو مناقض لشرع الله -تبـارك وتعـالىٰ- ودينـه، فهـٰذه فائـدة يفيـدها المسلم عند طوافه بالبيت .

ثم عندما يأتي ويقبِّل الحجر الأسود ويستلم الركن اليماني، لأيِّ شيءٍ يقبِّل المسلم الحجـر الأسـود ؟ ولأي شيءٍ يستلم الرُّكن اليماني ؟

هل لأنه يعتقد أنَّ الحجر الأسود يجلب له نفعًا أو يدفع عنـه ضُـرًّا ، هـل لأجـل هـٰذا يقبـل المسـلم الحجر الأسود ويستلم الرُّكن اليماني؟ ، حاشا وكلا .

المسلم يقبِّل الحجر الأسود ويستلم الركن اليماني لا لشـيء إلَّا لأن الله ﷻ شـرع لـه ذلـك ، لا لأن الحجر يضر وينفع ويعطي ويمنع، وأنّىٰ يكون لحجرٍ ذلك!

ولهـٰذا لما قبَّل الخليفة الراشد أمير المؤمنين عمر بـن الخطـاب الحجـر الأسـود قـال: (أمـا والله إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أنّي رأيت رسول الله ﷺ يقبِّلك ما قبلتك) ، هكذا يقول عمـر، والناس من حوله يسمعون حتىٰ يعرف من كان حديث عهد بالإسلام لأيِّ شيء يُقبَّل الحجر الأسود .

فتقبيل الحجر الأسود هو قربة لله وطاعة لله واتباع للرسول ﷺ، أمـا الحجـر فـلا يضـر ولا ينفـع ولا يملك شيئًا، الضار النافع هو من الله المعطي المانع ، الخافض الرافع، القابض الباسط، الذي بيده الأمور ، هو الله ﷻ، فكل حاجة تطلب منه، وكل لجأ يكون إليه وكل استعاذة تكون به، لا يلجأ إلىٰ غيـره ﷻ، فعندما يقبل المسلم الحجر الأسود ويستلم الركن اليماني ينبغي لـه أن يسـتفيد مـن هـٰذا فائـدة عظيمـة ودرسًا مهمًّا، وهو هل من المشروع للمسلم أن يقبل مكانًا آخر في الدنيا غير الحجر الأسـود ؟ أو يمسـح بمكان آخر في الدنيا غير الركن اليماني والحجر الأسود ؟!

من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من أنكر علىٰ الذي استلم بقية أركان البيت، يعني وجد من أخذ يستلم أركان البيت كلها: الحجر الأسود والذي يليه والآخر والركن اليماني، كل ركن يمر عليه يمسحه، فأنكر عليه الصحابة ذلك؛ لأنه استلم ركنًا من البيت لم نؤمر باستلامه، كما أنكر ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا من فعل ذلك ، استلم ركن من البيت لم يؤذن باستلامه ، فكيف بمن يستلم أحجارًا أو قبورًا أو أضرحة، وقد عظُم الجهل بالناس في هـٰذه الأزمان، بعضهم كل ما مرَّ علىٰ شيء مسحه، وإن دخل مسجدًا مسح علىٰ بابه، وإن مرّ علىٰ قبر مسحه ، إن مرّ علىٰ شيء مسحه، كل ما مر علىٰ مكان يمسح.

من أذِن لك بهـٰذا ؟ من أمرك بهذا؟ لم يَشرع لك الله فيما ثبت عن النبي ﷺ إلا تقبيل الحجر الأسود واستلام الرّكن اليماني.

فلماذا يذهب بعض الناس إلىٰ أمكنة أخرىٰ يتمسَّحون بها، والمصيبة عظيمة أكثر في هؤلاء أنهم يتمسحون ببعض الأمكنة يطلبون منها مددًا وعونًا وشفاءً ونصرًا وما إلىٰ ذلك، فيمسح بالقبر أو القبة أو بضريح وهو يريد أن يشافيه، والشافي هو الله ، يريد أن يرزقه والرازق هو الله ، يريد أن ينعم عليه والمنعم هو الله ، فهـٰذه مصيبة عظيمة .

والحاج عندما حج بيت الله يأخذ منه مثل هـٰذه الفوائد، ولتكن منّا علىٰ بال كلمة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أمَا والله إني لأعلم أنّك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أنِّي رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك).

ثم بعد ذلك عندما يتجه الناس إلىٰ عرفات؛ ذلك اليوم العظيم الذي هو خير الأيام وأفضلُها عند الله ، يوم عرفة، الذي يباهِي الرّبّ الغني الحميد عبادَه، يباهي ملائكته بعباده، يقول: «**انظُروا عبادي هؤلاء أتوني شُعثًا غبرًا، أشهدكم أني قد غفرتُ لهم**»، ذلك اليوم الذي هو خيْرُ الأيام.

ماذا يشرع للمسلم فيه؟

يقول -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: «**خير الدُّعاء يوم عرفة، وخير ما قلته أنا والنبيُّون من قبلي: لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو علىٰ كلِّ شيء قدير**» وتأملوا أيها الإخوة في هـٰذا التوافق العجيب والتناسق العجيب بين الدعاء الذي يقال وبين اليوم الذي يقال فيه الدعاء، اليوم الذي يقال فيه الدعاء أو هـٰذه الكلمات هو يوم عرفة، خير وسيد الأيام، أفضل أيام السنة علىٰ الإطلاق يوم عرفة، وهو خيرها وسيدها وأفضلها، وكان النّبي ﷺ والأنبياء من قبله يُكثرون في هـٰذا اليوم العظيم المبارك من أفضل الأذكار وسيدها الذي هو (لا إله إلا الله).

فـ(لا إله إلا الله) هي أفضل الكلمات علىٰ الإطلاق وأجلُّها علىٰ الإطلاق، كما قال -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- في الحديث الصَّحيح: «**أفضل الذكر لا إله إلا الله**» ، ولما قال أحد الصحابة وهو أبو ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: من الحسنات لا إله إلا الله ؟ قال النبي ﷺ: «**هي أحسن الحسنات**» .

فـ(لا إله إلا الله) هي أفضل الكلمات علىٰ الإطلاق، أمر بها جميعُ الأنبياء أقوامَهم، كما جاء في الحديث أن نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ قال لابنه: (**يا بني آمرك بـ (لا إله إلا الله)، فإنها لو وضعت في كفة والسموات السبع والأراضون في كفة، مالت بهن لا إله إلا الله**)، لا إله إلا الله لو توضع في كِفَّة والسَّموات والأراضين في كفة تميل بهن لا إله إلا الله، وهٰذا يدل علىٰ كبر شأن وعظم قدر هٰذه الكلمة .

ثم قال: (**ولو أن السموات والأرض كن حلقة مفرغة لقصمتهن**- وفي رواية: **لفصمتهن- لا إله إلا الله**)، كلمة عظيمة.

فاختار -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- لأفضل الأيام، أفضل الأذكار.

وهنا يأخذ المسلم فائدة عظيمة وهو أنَّ كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) هي أفضل الكلمات، ولأجل هٰذا اختارها النبي ﷺ والأنبياء من قبله الإكثار منها في هٰذا اليوم الذي هو أفضل الأيام.

وهنا يطرح الحاج علىٰ نفسه جملة من الأسئلة: ما واجبي تجاه (لا إله إلا الله)؟ ما حظي من لا إله إلا الله ؟ هل تدبرت معناها ؟ هل عرفت مقتضاها ؟ هل حقّقتُ شروطها وواجباتها ؟ هل ابتعدت عن نواقضها ومنقصاتها؟ ما هو شأني مع لا إله إلا الله ؟

هٰذه أسئلة مهمة، وبهٰذا يستفيد الحاج أنه ينبغي عليه أن يعتني بكلمة التوحيد (لا إله إلا الله) أعظم العناية، ويهتم بها تمام الاهتمام ويقدِّم العناية بها علىٰ كل أمر من الأمور، دراسةً وتعلُّمًا وتطبيقًا وتحقيقًا وبُعدًا عن كل أمر يناقِض هٰذه الكلمة أو يخلُّ بمقصودها.

(لا إله إلا الله) أفضل الكلمات علىٰ الإطلاق ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾[الأنبياء].

وهٰذه الكلمة (لا إله إلا الله) هي مفتاح الجنة، وقد سئل بعض السلف: أليست (لا إله إلا الله) مفتاح الجنة؟ قال: بلىٰ، ولكن ما من مفتاح إلا وله أسنان، فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك، وإلا لم يفتح.

يعني أنَّ المسلم لابدَّ أن يحقِّق شروط (لا إله إلا الله) وأن يأتي بضوابط (لا إله إلا الله) التي جاءت في كتاب الله وسنة النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فالمسلم لابد وأن يكون عالمًا بمعناها، عاملًا بمقتضاها، بعيدًا عما يناقضها ، ونسأل الله ﷻ أن يجعلنا وإياكم من المحقِّقين (لا إله إلا الله) صدقًا والمطبِّقين لها حقًّا.

ثم لمَّا ينتقل الحجاج إلىٰ يوم النحر، وسُمِّي بيوم النَّحر لأنّ الناس ينحرون بهيمة الأنعام تقربًا إلىٰ الله ﷻ، طاعة له وطلبًا لمرضاته وثوابه ﷻ.

والله ﷻ غني حميد ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡ ﴾[الحج:٣٧].

فالمسلمون ينحرون هداياهم تقربًا إلىٰ الله، ومن نعمة الله ﷻ علىٰ أهل البلدان الذين لم يتيسَّر لهم الحج أن هيّأ لهم مشاركة الحجَّاج في شيء من أعماله، وذلك بتقديم الأضاحي تقرُّبًا إلىٰ الله ، فالحجاج في مكة ينحرون الهدي، والمسلمون في بقية الأرض ينحرون ويذبحون الأضاحي، والكل يتقرب إلىٰ الله.

والذبح عبادة لا يجوز صرفها إلا لله تعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢﴾[الأنعام]، وقوله: ﴿وَنُسُكِي﴾ أي: ذبحي.

وقال تعالىٰ : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ٢﴾[الكوثر] فالذبح عبادة لا يجوز صرفها لأحد كائنًا من كان، لا يجوز صرفها إلا لله .

وقد خرَّج مسلم في «صحيحه» عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**لعن الله من ذبح لغير الله**»، واللعن هو: الطرد والإبعاد عن رحمة الله .

وهنا يستفيد الحاج فائدة عظيمة، وهي: أن نحر الهدي وذبح الأضاحي إنما هو قربة لله ، وهكذا ذبْح العقيقة ونحو ذلك، إنما هو قُربة لله ﷻ، وطاعة لله ﷻ.

وصلَّىٰ الله وسلَّم وبارك وأنعم علىٰ عبد الله ورسوله ونبيه محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين .

أما بعد،

نواصل ما وقفنا عند الأذان، وما يتعلَّق بالذِّبح الذي يكون في يوم النحر، ذلك اليوم العظيم ، وأشرت إلىٰ أن الذبح عبادة وطاعة وقُربة لله ﷻ لا يجوز أن تصرف لغيره، لا يجوز أن يُذبح لغيره ولا أتفه الحيوانات ، فضلًا من أن يستثمن الذبائح ويختار نفائس الأنعام.

جاء في «الحلية» لأبي نعيم بإسناد صحيح عن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: (دخل رجل الجنة في ذباب، ودخل رجل النار في ذباب، قيل: وكيف ذلك ؟ قال: مرّ رجلان علىٰ قوم عندهم صنم، لا يجوزه

أحد) أي: لا يجوز أن يعبره أحد (حتىٰ يقرب ، فمر رجلان بهـٰذا الصنم، فقالوا لأحدهما: قـرِّب ، قـال: لا أجد شيئًا أقربه قالوا: قرب ولو ذبابًا ، فقرب ذبابًا فمر فمات فدخل النار)، لأنه قـرب ذبابًـا لغيـر الله ، (فقالوا للآخر: قرب ، قال: ما كنت لأقرب لأحد غير الله)، أي: أنا لا أقرب أي شـيء إلا لله ، (فقتلـوه ، فدخل الجنة)، وهـٰذا معنىٰ قوله: (دخل رجل الجنة في ذباب ودخل رجل النار في ذباب).

هـٰذا ذبح ذباب لغير لغير الله فدخل به النار، فكيف مـن يشـتري الشـاه السـمينة أو البعيـر السـمين أو البقرة السمينة ويذهب بها ويذبحها لغير الله عَزَّوَجَلَّ.

هـٰذا أمّا ما يتعلق بالذَّبح في يوم النحر -كما تعلمون- يحلق الحجاج رؤوسهم ومنهم من يقصر، وقد دعـا النبـي ﷺ للمحلِّقـين ثـلاث مـرات وللمقصِّـرين مـرة واحـدة، قـال تعـالىٰ : ﴿ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ﴾[الحج:٢٧].

والحلق يأتي في أواخر أعمال الحج: إزالةً للشَّعر وقضاء للتفث ، فيزيل الحاج شـعره تقرُّبًـا إلـىٰ الله ، ينـزل رأسه ويزيل شعره ويلقِي شعثه وكل ذلك تقرُّبًا إلىٰ الله وطلبًا لثوابه ورغبة في نيل مرضاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فإزالة الشَّعر في منىٰ يوم العيد هـٰذه قربة وطاعة إلىٰ الله، وقد حاول بعض دعاة الباطل وأئمة الضَّـلال أن يجعلوا أنفسهم بهـٰذه المنـزلة فيمن تحتهم ، وفيمن يضلونهم عن دين الله عَزَّوَجَلَّ؛ فيوجد بعض شـيوخ الضلال ودعاة الباطل من يطلب من مريده ومن يتبعه إذا أراد أن يلتحق به أو يكون معه أن يجلـس أمامـه ويرخي رأسه ويحلق شعره له، يحلق شعره للشيخ، يزيـل الشـعر الـذي في رأسـه أمـام الشـيخ انكسـارًا وتذللًا بين يدي الشيخ، يضاهئون بذلك عمل الكفار، والعياذ بالله الذين يتقربـون بالعبـادات والأعمـال لغير الله عَزَّوَجَلَّ ، فإزالة الشعر هـٰذه قربة لله وتـذلل وطاعـة وامتثـال لأمـر الله عَزَّوَجَلَّ، فهـٰذه فائـدة يفيـدها المسلم .

عندما يرمي المسلم الجمار اتباعًا لسنة النَّبي الكريم -عليه الصلاة والسلام- يوم العيد، يرمي جمـرة العقبة بسبع حصيات، وبقية الأيام يرمي الجمار الثلاثة كل جمرة بسبع حصيات اتباعًا لسـنة النبـي عَلَيْـهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

عندما ننظر إلىٰ سنته في رمي الجمار نستفيد من هـٰذا فائدة عظيمة في حياتنا كلها وعبادتنا لله.

النبي ﷺ كما في الصحيح أمر عبد الله بن عباس وقال له: « **القط لي حصـىٰ** » قـال ابـن عبـاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: فالتقطت له سبع حصيات هنّ حصىٰ الخذف.

حصىٰ الخدف وصفه العلماء بأنه أصغر من البندقة وأكبر من الحمصة ، يعني بقدر حبّة الفول المتوسطة، فهي حصاة بهٰذا الحجم ، فأخذها بيده -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- وأراها الناس وقال لهم: «**بمثل هٰذا فارموا**».

يعني لا يزيد أحدكم عن ذلك : بمثل هٰذا ، فرموا وأراهم إياها ، والأمر واضح غاية الوضوح « **بمثل هٰذا** » ، «**وإياكم والغلوّ، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين** » والغلو بيّن والإثم بيّن، والنبي ﷺ بيّن الأمر، وبيّن الأمر غاية البيان ، أراهم الحصىٰ وقال: «**بمثل هٰذا فارموا**» والعلماء تناقلوا ذلك .

انظر إلىٰ واقع المسلمين في رمي الجمار، هل طبقوا ما أمر به النبي ﷺ ووجه إليه، واجتنبوه ما حذر منه أم أنهم خالفوا ذلك.

عندما تأتي الجمار ترىٰ عجبًا من أحوال الناس، الذي يرمي بحصاة كبيرة ، والذي يرمي أعزكم الله الحذاء ، والذي يرمي حجارًا والذي يرمي علب العصير، أليس هٰذا كله داخل تحت ما نهىٰ عنه -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- في قوله: «**إياكم والغلو، فإنَّما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين**» .

سنَّتُه في رمي الجمار واضحة، وهديُه مستبين لكن جهل الناس بالسنة وعدم معرفتهم بهدي خير الأمة عليه الصّلاة والسّلام، يجعل بعضهم يشتط ويغلو في دين الله عَزَّوَجَلَّ.

وكما أنَّ الأمر كذلك في رمي الجِمار، فإن الأمر كذلك في كل الإعمال، ما مِنْ عمل أمر الله عَزَّوَجَلَّ به إلا والناس فيه علىٰ ثلاثة أقسام: أهل غلوّ، وأهل جفاء، وأهل توسُّط، وخير الأمور أوسطُها لا إفراطها ولا تفريطها.

لا يجوز الغلوّ في الدِّين والزيادة، لا يجوز أيضًا الجفاء والتفريط؛ بل يكون الإنسان متوسطًا، والتوسط إنما يكون بلزوم ما كان عليه النبي الكريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

قال تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾[البقرة:١٤٣].

دروس الحج -أيها الإخوة- كثيرة جدًّا في هٰذه العجالة لا تسمح بذكر أو بسط ما يتعلق بدروس الحج ، لكني أختم بدرس أخير من دروس الحج:

تعلمون أنَّ الحجاج ولاسيما الرجال عندما يُحرمون السنة في الحج، إنَّما يحرم بإزارين أبيضين نظيفين أحدهما يسمىٰ الرداء ويكون علىٰ جزء البدن الأعلىٰ والآخر يسمىٰ الإزار ويكون في جزء البدن الأسفل، يشترك فيه جميع الحجاج بجميع أجناسهم وبلدانهم ولغاتهم، ومع اختلاف ألبستهم في بلدانهم

، ألبستهم مختلفة لكنهم يأتون ويتَّحدون جميعًا في اللباس، لباس واحد: إزار ورداء ، هٰذا اللباس يستوي فيه الجميع؛ الغني والفقير، والرَّئيس والمرؤوس، والصَّغير والكبير، والجميع مشتركون في لباس واحد، وعلىٰ هيئة واحدة، ومقصودهم عبادة الله عَزَّوَجَلَّ.

هٰذا الاشتراك في اللباس كما ينبّه أهل العلم يذكر بارتحال الإنسان من هٰذه الحياة، عندما يرتحل الإنسان من هٰذه الحياة لا يأخذ معه من الدُّنيا إلا رداء يلفُّ به كل متاع الدنيا، الجميع الرئيس والمرؤوس والغنيّ والفقير والصغير والكبير إذا مات حصيلته من الدنيا لفافة مثل الرداء والإزار تلف علىٰ بدنه، يغسَّل ويطيب ويلف بهٰذه اللفافة ويوضع في حفرة لا يدخل معه من دنياه ولا درهم واحد.

اللِّباس يذكِّر بتساوي الناس بالأكفان ، وأن الجميع يُلبسون عند الموت كفنًا واحدًا وعلىٰ هيئة واحدة، وهٰذا فيه تذكير للحجاج بالتزود ليوم المعاد، ولهٰذا قال الله عَزَّوَجَلَّ في أثناء آيات الحج: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾[البقرة]، وهٰذا أمر للجميع بأن يستعدوا ليوم المعاد، اليوم الذي يلقىٰ فيه الناس رب العباد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ .

ونسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يوفق الجميع لما يحب ويرضىٰ وأن يعيننا جميعًا علىٰ البر والتقوىٰ وأن ييسر لحجاج بيت الله حجهم وأن يتقبل منهم وأن يغفر ذنوب الجميع وأن يصلح لنا جميعًا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأن يصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأن يصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا، وأن يجعل الحياة زيادة لنا في كل خير، والموت راحة لنا من كل شر.

والله أعلم، وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

۞۞۞۞